النشاط التجارى فى المغرب الأقصى
خلال العهد الوطَّاسى (٨٧٦ - ٩٦١هـ / ١٤٧١ - ١٥٥٤م)

أ. أيمن السيد عبد اللطيف [١]

مُلخص:

تلقى الدراسة الضوء على النشاط التجارى فى المغرب الأقصى فى عهد بنى وطاس، لا سيما فى ظل ما تمتع به المغرب الأقصى من ثروات مهمة تمثلت فى تنـــوع للمحاصـــيل الزراعية بسبب خصوبة التربة وتوفر وسائل الرى، وما توفر به من ثروات معدنية وجغرافية أسهمت بشكل كبير فى ازدهار النشاط الصناعى والحرفى، بالإضافة إلى النشـــاط التجـــارى سواء على الصعيد الداخلى أم على صعيد الصلات الخارجية للبلاد سواء مع أوروبا أم بلادن المغرب الإسلامى الأخرى أم بلاد السودان.

Abstract:

The study sheds light on the commercial activity in the Far Maghreb during the era of Bani Wattas, especially in light of the important wealth that the Far Morocco enjoyed, represented in the diversity of agricultural crops due to the fertility of the soil and the availability of irrigation means, and the availability of mineral and geographical wealth that contributed greatly to the prosperity of Industrial and craft activity, in addition to commercial activity, whether at the internal level or at the level of the country's external relations, whether with Europe, the other countries of the Islamic Maghreb, or the countries of Sudan.

(١) باحث دكتوراه بكلية الدراسات الأفريقية العليا - جامعة القاهرة

مقدمة:

لا ريب أن الحياة الاقتصادية للمجتمع المغربى قد تأثرت بالنواحى السياسية والحروب والاضطرابات الموجودة بالبلاد إبان حكم بنى وطاس، غير أن النشاط الاقتصادى قد استمر وتطور فى أغلب المناطق بالمغرب الأقصى، نظراً لتوفر العديد من المصادر والثروات الزراعية والمعدنية ببلاد المغرب والتى أتاحت استمرار النشاط الاقتصادى وازدهاره فى عدة مدن لاسيما المدن الكبيرة والتجارية منها، والتى أسهمت بنصيب كبير فى ازدهار الاقتصاد المحلى فى هذه الحقبة، وظهر ذلك جلياً فى المجال الزراعى والصناعى.

كذلك حظيت بعض المدن بالمغرب الوطاسى – لاسيما الكبيرة منها– بحركة تجاريةواسعة بسبب ازدهار الزراعة وتنوع الصناعات والحرف بها مما أدى إلى وجود تجارة متبادلة بين أقاليم المغرب المختلفة.واشتملت التعاملات التجارية على العديد من الأنظمة التجارية كالبيع بالمعاوضة ونظام المزايدة والدلالة والسمسرة وغيرها من المعاملات التجارية. وقد أسهمذلك فى استمرار النشاط الاقتصادى وتطوره، بغض النظر عن سرعة هذا التطور أو بطئه ومدى تأثره بالأحداث السياسية؛ إذ أنه لا يوجد بالمصادر التاريخية ما يحملنا على الظن بأنه أصيب بتأخر جدى أو نكسة كبيرة، بل على العكس نجد أن هجرة الأندلسيين إلى المغرب واتصافهم بالمهارة يؤكد على تطور النشاط الاقتصادى بالبلاد فى هذه الفترة.

كما حظيت بعض المدن الساحلية بالمغرب الوطَّاسى بحركة تجارية بغية ترويج البضائع بين المغرب الأقصى وأوروبا من ناحية وبلادن المغربين الأدنى والأوسط وبلاد السودان وإفريقيا جنوب الصحراء من ناحية أخرى، حيث كانت السواحل المغربية محط أنظار التجار الأوروبيين كسوق رائجة لبضائعهم من منسوجات وأوانى وأسلحة وعطور فى مقابل الزيوت والحبوب والمواد ذات الأصل السودانى من العاج والذهب والملح والعبيد وبعض التوابل.وسوف نلقى الضوء على الحركة التجارية فى هذه الحقبة التاريخية من خلال نشاط التجارة الداخلية وكذلك التجارة الخارجية لبلاد المغرب الأقصى.

من صعوبات الدراسة قلة المصادر التى تحدثت بشكل مباشر عن الدولة الوطَّاسية بشكل عام وعن المجتمع المغربى فى هذا العهد بشكل خاص، حيث أن المؤرخين القدامى منهم والحاليين يوجهون أقلامهم فى الغالب نحو كتابة التاريخ السياسى والعسكرى، لذلك اعتمد الباحث بشكل أساسى فى هذه الدراسة على كتب التراجم والطبقات والنوازل لاستقراء الأحوال

العامة للمجتمع المغربى فى هذه الفترة التاريخية من كافة النواحى الاجتماعيـــة والاقتصـــادية والثقافية، ومدى تأثر المجتمع بالنواحى السياسية.

أهداف الدراسة:

١- إلقاء الضوء على المجال التجارى بالمغرب الأقصى خلال حكم بنى وطاس، ورواجها بين المدن الكبرى وباقى المدن والقرى.

٢- توضح الدراسة حركة التجارة الداخلية ببنى وطاس ومدى رواج الأسواق والحوانيت التى انتشرت بكافة المناطق.

٣- إظهار النظم والتعاملات التجارية التى كانت منتشرة بالمغرب الأقصى فترة الدارسة.

٤- تتبع الدراسة مراكز التجارة الخارجية بالمغرب الأقصى، والحركة التجارية مع أوروباوباقى بلاد المغرب الأوسط والأدنى.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة فى إلقاء الضوء على جوانب الحياة للمجتمع المغربى فى عهد بنى وطَّاس (٨٧٦ - ٩٦١هـ / ١٤٧١ - ١٥٥٤م)، حيث أنه لم يتم تناولها باستفاضة فى دراسات الباحثين الذين قاموا بدراسة هذه الفترة التاريخية والتى وسموها بالغموض، وبنوا هذه النظرية انطلاقاً مما كان يعيشه المغرب آنذاك من حروب وفتن وأزمات اقتصادية وسياسية، إلى جانب قلة المعلومات بالمصادر التاريخية عدا بعض الإشارات وكتب التراجم التى تتحدث عن هذه الحقبة.

الكلمات المفتاحية: بنو وطاس، التجارة الداخلية، التجارة الخارجية، الأسواق، المغرب الأقصى، أسواق فاس، الموانئ المغربية، المحتسب.

المبحث الأول
التجارة الداخلية

عادةً ما تنشط التجارة فى أوقات السلم، أما فى الاضطرابات والفتن الداخلية والتى انتشرت إبان الحكم الوطاسى فقد عكست أثراً سلبياً على الحركة التجارية بوجه عام، بالإضافة إلى الصراع الدائر على السواحل المغربية مع البرتغال وأسبانيا آنذاك، وعلى الرغم من ذلك فقد حظيت بعض المدن بالمغرب الوطاسى – لاسيما الكبيرة منها– بحركة تجارية بسبب ازدهار الزراعة وتنوع الصناعات والحرف بها مما أدى إلى وجود تجارة متبادلة بين أقاليم المغرب المختلفة.

المطلب الأول: النظم التجارية

كانت التعاملات التجارية تأخذ عدة أشكال منها البيع بالمعاوضة وهى تعادل المقايضة يعنى استبدال وتعويض سلعة بأخرى أو بمبلغ من المال وقد انتشر ذلك فى القرى المغربية، فكان يستبدل تجار فاس منتجاتهم بجلود وسروج أهل هسكورة(١).

ومن الأنظمة المالية التى عُرفت بالمغرب نظام المزايدة والدلالة والسمسرة حيث كثُر وجود الدلالين فى الأسواق المغربية، والدلَّال يعتبر وكيل البائع أو التاجر، فقد كان الشائع بين التجار أن يقوم أحدهم بإعطاء السلعة إلى الدلَّال لبيعها له مقابل أجرة معينة، ويبدأ عمل الدلال فى منتصف النهار وينتهى فى وقت متأخر من المساء(٢)، وكانت بعض النسوة يبعن عند أبواب دورهن ويستعن بالدلَّال فى ذلك فيقوم الدلال بالنداء عليها فى السوق، وتحدث المزايدة بين الناس عند شرائها حتى أعلى سعر، والأجرة التى يأخذها الدلال هى ما يعرف بالسمسرة(٣).

---

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الإفريقى: "وصف إفريقيا"، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجى، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان،الطبعة الثانية: ١٩٨٣، ج١، ص١٦٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٣) الونشريسى (أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسى ت:٩١٤هـ/١٥٠٩م): "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب"، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د/ محمد حجى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٦، ص٧٨.

ومن المعاملات التجارية فى المغرب الوطَّاسى نظام القراض وهو أن يقوم رجل بإقراض آخر مالاً ليعمل به على وجه القرض نظير جزء من الربح، ويتم ذلك بعد إبرام عقد بين الطرفين يشهد عليه بعض الشهود العدول(١).

كما عرفت الشركات التجارية وهى إقامة مشروع بين شخصين أو أكثر بعقد مبرم بينهم على أن يقسم الربح على أساس مدى المساهمة فى الشركة(٢)، ووجد أيضاً ما يعرف بنظام الوكيل التجارى والذى يتولى حق القبض وطلب الحقوق نيابة عن موكله، بناءً على عقد يبرم بينهما عند القاضى(٣).

كذلك عُرف بالمغرب نظام الرهن ويقصد به رهن العقارات كالدور والبساتين والأراضى والثمار أو الزروع مقابل مبلغ من المال، كما وجد أيضاً نظام العارية والسلف والكراء حيث جرت العادة على أن تستعير النساء الحلى أو تكتريه لمدة معينة مقابل مبلغ يتفق عليه، كذلك كان هناك كراء الثيران للحرث والبازى(٤) للصيد واكتراء الحوانيت والسفن لنقل البضائع نظير أجرة معينة يُتفق عليها فى العقد(٥).

أما عن المكاييل ببلاد المغرب فوجد المد القروى أو المغربى(٦)، وكذلك المد النبوى والذى كانت تؤدى به الصدقات أو الزكاة(٧) والذى كان لا يزيد عن رطل ونصف ولا يقل عن رطل وربع ويزن ست عشرة أوقية(٨)، كما عرف الصاع ويعادل أربعة أمداد نبوية، وكذلك

---

(١) الونشريسى، المصدر السابق، ص٥٦٢.

(٢)المصدر السابق، ج٥، ص٢١٥، ٢٣٦ ، ج٨، ص١٨٩.

(٣) المصدر السابق، ج٨، ص١٩٦، ج١٠، ص٣٣٢ وما بعدها.

(٤)الباز: الجمع بواز أو بزاة، وهو من جوارح الطير جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم من فصيلة العقاب النسرية والتى تميل أجنحتها إلى القصر وتميل أرجلها وأذنابها إلى الطول. انظر: ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم ت: ٧١١ه/١٣١١م): "لسان العرب"، دار المعارف، القاهرة، ص٢٧٨.

(٥)الونشريسى، مصدر سابق، ج٩، ص١٠٦ ، ١٠٨ – ١١٠، ج٨، ص٣٠٨ – ٣١١.

(٦) موسى لقبال: "الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربى نشأتها وتطورها"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،الطبعة الأولى: ١٩٧١م،ص٧٦.

(٧) الونشريسى، مصدر سابق، ج١، ص٣٩٩، ج٥، ص١٤٤.

(٨) محمد المنونى: "ورقات عن حضارة المرينيين"، المملكة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ه–٢٠٠٠، ص١٣٨.

الوسق والذى يعادل ستين صاعاً[١]، أما الموازين فاستخدم القنطار ومقداره الشرعى مائة رطل، كما استخدم الرطل والأوقية[٢].

ويتولى رئيس الأمناء – وهو ما يعرف بالمحتسب – تسعير كافة السلع ومتابعة المخالفات بالأسواق ومعاقبة المخالف[٣]، فالحسبة هى نظام إسلامى استجابة لحكم الله تعالى ولأمر رسوله صلوات ربى وتسليماته عليه، ثم صارت ولاية من ولايات الإسلام ونظاماً من أنظمة الحكم التى جرى عليها الولاة والحكام مع ولاية القضاء والمظالم وغيرها من الولايات، والحسبة نظام إسلامى شأنه الإشراف على المرافق العامة وتنظيم عقاب المذنبين، فهى وظيفة دينية قائمة على فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، من خلال قيام المحتسب بالمحافظة على النظام العام وإلزام المجتمع بذلك[٤].

وكانت الحسبة فى العالم الإسلامى تسند إلى أحد الأعيان، أما فى العهد الوطّاسىفقد انحطت رتبتها الى درجة أنها بدأت تسند الى أُميِّين فضلاً عن أنها صارت موضع مساومة لدى السلطان، وكان محتسب فاس جابياً فى نفس الوقت[٥]،حيث يتولى مهمة الجباية بفاس ويؤدى الى الخزينة الملكية ثلاثين ديناراً يومياً[٦]، وكان يتجول فى المدينة على ظهر جواده مخفوراً باثنى عشر رامياً لمراقبة الخبز وتفقد أوزان الجزارين، وإن وجد غشاً فى الميزان قام بمعاقبة المخالف بجلده، كما كان يقوم بمعاقبة المحتكر لأى سلعة بأن يكون للمحتكر رأس ماله

---

(١) القلقشندى (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندى ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م): "صبح الأعشى في كتابة الإنشا"، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٣٣هـ–١٩١٥م، ج٥، ص٢٠٤.

(٢) موسى لقبال، مرجع سابق، ص٧٦.

(٣)محمد فتحة: "النوازل الفقهية والمجتمع – أبحاث فى تاريخ المغرب الإسلامى من القرن ٦ إلى القرن ٩هـ/ ١٢ إلى١٥م"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثانى، الدار البيضاء، ١٩٩٩، ص٣٢٨.

(٤) ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت: ٧٢٩هـ/١٣٢٩م)،"معالم القُربة في أحكام الحسبة"، تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٦، ص٢٣ وما بعدها.

(٥) الونشريسى، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨ ، ٦٣ وما بعدها.

(٦) إبراهيم حركات، "المغرب عبر التاريخ، من بداية المرينين إلى نهاية السعديين"، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة: ١٤٢٠–٢٠٠٠، ج٢، ص١٩٨ وما بعدها.

أما الربح فيتصدق به على ذوى الحاجة تأديباً له [١]، وإذا عاد التاجر إلى ذلك مرة أخرى يضرب ويطاف به فى الأسواق ويسجن عقوبة له[٢].

ومن المكوس التى فرضت على أهل المغرب فى العهد الوطَّاسى ضريبة مغرم السوق والتى كانت تجبى من التجار والباعة والصناع بالأسواق لتحصين الثغور المغربية[٣]،ويعهد إلى أمناء السوق بتوزيع الضرائب على الناس، ومن هذه الضرائب أيضاً ضريبة تسمى مغرم الدور يتولى جبايتها عمال يترددون على الدور ويحصلونها من أصحاب العقارات السكنية[٤]، كما وجدت ضريبة العشر ويتولى جبايتها عامل الأعشار وكان العشر على المحاصيل والأراضى الزراعية، وكان يساعد عامل الأعشار فى مهمته مجموعة من عمال الجباية والخراص الذين يقومون بخرص أى تقدير المحصول، وكان معظم هؤلاء العمال يوصفون بالظلم والتعسف ويعدون فى نظر الفقهاء من مستغرقى الذمة[٥].

وقد حظى اليهود بالمغرب بشغل وظيفة الصرف ببيت مال المسلمين لخبرتهم فى أعمال الصرافة والحسابات المالية، فكانوا يتولون وزن الدراهم أو الدنانير المقبوضة والمنصرفة، واعتمد حكام بنى وطاس على ما يقولونه ويكتبونه فى سجلاتهم رغم اعتراض الفقهاء على ذلك ورفضهم وجود اليهود فى العمل ببيت مال المسلمين[٦].

وكان يعهد بكتابة وثائق التجار والعقود إلى فئة الموثقين وكانوا يقومون بتحرير العقود المتعلقة بالسكان بالمدينة أو البادية والتى كان يوقعها بعد ذلك القاضى[٧]، وكانوا يخرجون أيضاً فى الجبايات المخزنية ويتولون كتابتها، وكان هناك أيضاً من عرف بالجلاس

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٠ وما بعدها.

(٢) الونشريسى، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج٥، ص٣٢.

(٤) المصدر السابق، ج٦، ص١٣٧.

(٥) مستغرق الذمة: لفظة أطلقها الفقهاء على كل من تولى جباية ظلم مختاراً، حتى وإن كان لا يأخذ لنفسه شيئاً. انظر: المعيار المعرب، ج٦، ص١٣٧ وما بعدها.

(٦) المصدر السابق، ج١٢، ص٣٧٦.

(٧) مارمول كربخال: إفريقيا"، ترجمه عن الفرنسية محمد حجى محمد زنيبر محمد الأخضر، دار نشر المعرفة، ١٤٠٩/١٩٨٨، ج٢، ص١٥٠.

الذى ينزل التاجر عنده فيتولى ضبط ما جلب وينظر فى جميع ما يوظف عليه بيت المال، ويأخذ به سلعاً فيبيعها ويدفع ثمنها للوالى الذى يحصل على راتبه منه(١).

ومن الدواوين التى كانت تعمل على تنظيم الشئون المالية والإشراف عليها ديوان الخراج، وكذلك ديوان المواريث وديوان الودائع وهى خاصة بالتعامل مع أموال الورثة(٢)، أما شؤون الجمرك والضريبة التجارية فلا يديرها سوى موظف واحد، يؤدى يومياً ثلاثين مثقالاً للخزينة الملكية، ويضع أمام كل باب من أبواب المدينة حراساً وكتاباً يتقاضون المكوس عن كل البضائع القليلة الأهمية فى الأبواب، ويصحب البضائع الأخرى حرس من الباب إلى مكتب الجمرك، ويتقاضى الحراس والكتاب بعض التعويضات بحسب كمية البضائع، ويذهب هؤلاء الحراس أحياناً إلى خارج المدينة لملاقاة البغالين حتى لا يخفوا شيئاً من البضاعة وتضاعف الرسوم حال إخفاء البضاعة ولا يؤدى أى رسوم عن الخشب والقمح والبقر والدجاج، وكذلك عن الأغنام المجلوبة إلى فاس لكن يتم الدفع فى المجزرة(٣).

وكانت دار السكة توجد بجوار قصر الملك بفاس الجديد، حيث يقيم المشرف عليها، وبالقرب منها دار الصاغة والصرَّاف الذى يملك حق السَّكَّ ويزن النقود ويضع عليها السعر(٤)، وقد تأثر النظام النقدى ببلاد المغرب فى العهد الوطَّاسى بالحياة السياسية فقد تدهورت العملة الذهبية والتى عرفت بالدينار الذهبى العثمانى فى العهد المرينى والتى اتسمت بالجودة وصحة الوزن، وأحلت مكانها الدنانير الفضية حيث كانت هى السكة الجارية(٥)، وقد وجد تزييف العملة بالمجتمع المغربى وهى من الأسباب التى أثرت على النظام النقدى آنذاك(٦).

---

(١) الونشريسى، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨ ، ٦٣ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ج١٠، ص٢٢ ، ١٢٢ ، ٤٠٧ وما بعدها.

(٣) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٠ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٨٣؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٧.

(٥) الونشريسى، مصدر سابق، ج٥، ص١٨٩ ، ٢٧٢.

(٦) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٦.

المطلب الثانى: الأسواق والحوانيت

اختصت كل سوق بصناعة معينة أو نوع معين من السلع، وغالباً ما تكون هذه الأسواق حول المساجد على حسب ما توفره لها من احتياجات المسجد، فهناك سوق الشماعين لوجوب الاستضاءة بالشموع وهناك سوق العطارين وباعة البخور(١)، وكذلك سوق القباقيبية لوجوب الوضوء، وإلى جانب هذه الأسواق المأذونون لكتابة عقود الزواج، ولارتباط المسجد بالأسواق، سميت أبواب المساجد بأسمائها، مثل مسجد القرويين فى فاس فبه باب الكتبيين وباب الشماعين وباب الموثقين، ثم تتعاقب الأسواق طبقة فطبقة فهناك أسواق للرقيق(٢)، وأخرى للزيت والبز والغزل والعطارة والخضر واللحم وغيرها من السلع(٣)، إلى أن يكون آخرها إلى جانب سور المدينة والتى يجب أن تكون بعيدة عن المنازل والسكان حتى لا تؤذيهم برائحتها أو أدخنتها مثل الدباغين والصباغين والحدادين وغيرها من الحرف (٤).

كما وجدت بالقرى البعيدة عن المدن أسواق خاصة بها يباع بها اللحم والسمن والخضر والفاكهة وكان البيع بها يتم جزافاً دون ميزان، أما سكان القرى القريبة فكانوا يقومون بتسويق سلعهم فى الحواضر، حيث ينزلون بفنادق المدينة لبيعها بسعر أعلى وفى وقت وجيز حتى يتمكنوا من العودة إلى قراهم(٥).

ونقتبس من الوزان المتوفى عام (٩٢٦هـ/١٥٢٠م) وصف أسواق فاس حيث أعطانا وصفاً دقيقاً لها، فكانت مفصولة بعضها عن بعض، وأهمها يوجد حول جامع القرويين وبالقرب منه سوق الكتبيين وبائعى الأحذية الذين كانوا يشترون الأحذية والخفاف بالجملة من الخرازين ثم يبيعونها بالتقسيط، وكان للخرازين حيان مخصصان لصناعة الأحذية وبعدهم صانعو نطاقات النساء وهى من الصوف وبعضهم كان يصنعها من الحرير من ضفائر

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٣٤؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٠ وما بعدها؛ إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٥.

(٢) أحمد مختار العبادى: "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس"، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣، ص١١٠.

(٣) الونشريسى، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٧ ، ٢١٧، ج١٠، ص٢٤٢ ، ٤٠٩، ج١١، ص١٢٥.

(٤) عثمان الكعاك: "الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط"، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٦٦.

(٥) الونشريسى، مصدر سابق، ج٥، ص٨٨ – ٩٨، ج٦، ص٤٢٦.

غليظة،ويوجد بعيداً منهم صانعو الفرش والوسائد الصيفية وبعض البسط لجلدية الصغيرة(١)، ثم نجد بعد ثلاثة أحياء للخياطين بعدها حى خاص بالعمال، وبعيداً منها يوجد حى آخر تصنع فيه جميع ما تزين به البرانس من بلوطات حريرية وغيرها(٢).

وأمام الباب الرئيس للجامع باعة الفواكه وبعد ذلك تجد بائعى الأزهار الذين يبيعون أيضاً الليمون والحامض، ثم بائعو اللبن الذين يشترون اللبن من البقارين فيعلفون الأبقار لهذه التجارة ويرسلون كل صباح اللبن فى أوعية من خشب مطوقة بالحديد ضيقة جداً فى فمها وعريضة فى قعرها، فيبيعه اللبانون فى آنية الميورقى المزخرفة، وما يتبقى منه يشتريه تجار ليصنعوا الزبد واللبن الرائب(٣).

ويوجد سوق العطارين وهو عبارة عن زقاق مغلق من طرفيه ببابين عليهما حراس يتجولون ليلاً بالفوانيس والكلاب والأسلحة ويتكفل العطارون بنفقات هؤلاء الحراس، ودكاكين العطارة كانت كثيرة الزخرفة ذات سقوف جميلة وخزائن، وفى سوق العطارين كانت تباع المواد المتعلقة بالعطارة والطب أو الأعشاب المستخدمة للعلاج أما الأدوية والمراهم فكان الأطباء يعدونها فى منازلهم ثم يبيعونها فى دكاكين الأطباء والتى كانت مجاورة لدكاكين العطارين، وإلى جانب العطارين من جهة الشرق صانعى الإبر، وبالقرب من سوق العطارين يوجد دكاكين يصنع فيها المشط،وأمام هذه الدكاكين دكاكين لموريسكيين يصنعون أسلحة نارية، وبعدها دكاكين لا يصنع فيها إلا المكانس من سعف النخل، وبجوارها دكاكين لصانعى المسامير والمكاييل والأوزان(٤).

وضم السوق أيضاً بائعى القطن ثم صانعى النطق الجلدية والخفاف والأَزِمَّة الجلدية وصانعى المشدات الذين يصنعون أغمدة السيوف ويموهون الركابات واللبانات واللجم بالذهب ويزخرفونها بمنتهى الإتقان، ودكاكين لصانعى أغطية السروج من الجلود المغربية أو من جلد الماعز القرطبى والمخيطة بدقة متناهية، وأيضاً يوجد صانعو الدلاء الجلدية التى تستعمل فى المنازل التى بها آبار بالناحية الغربية لجامع القرويين بطريق مكناس، ودكاكين لصناعة

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٠ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤١.

(٣) المصدر السابق، ص٢٣٤؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٠ وما بعدها؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مرجع سابق، ص٢١٥.

(٤) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٩-٢٤٣؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٣ وما بعدها.

أمشاط من الحديد حادة جداً لإصلاح الكتان ونفش الصوف، وبعدهم يأتى النجارون الذين يصنعون المحاريث وعجلات العربات وعجلات للطاحونات أو لرفع الماء، وبعدهم يأتى الصباغون وصانعو الرماح الطويلة، ثم بائعو الأوانى الخزفية ذات الصنعة المتقنة(١)، ثم يأتى البيطريون وأمامهم مباشرة صانعو حبال القذافات والحراب والسهام، وبجانبهم الذين يطرون جلود البقر وكذلك جلد الماعز المدبوغ الملون(٢). وعلى مسافة قريبة يوجد الجزارون فى نحو أربعين دكاناً مرتفعة على شكل دكاكين الحرف الأخرى، ويقومون بفصل اللحم ووزنه ولا تذبح البهائم فى الدكاكين ولكن فى مجزرة بجوار النهر حيث تسلخ وتحمل إلى الدكاكين بواسطة حمالين تابعين للمجزرة، وقبل أن تحمل الذبائح تعرض على المحتسب الذى يأمر بفحصها ويسلم بطاقة مكتوباً عليها السعر الذى يباع به اللحم، ويلزم الجزار أن يلصق هذه البطاقة على اللحم(٣).

وقد وجدت أسواق للوجبات الجاهزة والمطاعم مثل سوق الدخان حيث تباع الفطائر المقلية فى الزيت (الاسفنج)، ولبائعى الفطائر فى دكاكينهم عدة آلات وغلمان ويبيعون منها كميات كبيرة تؤكل عند الفطور لاسيما أيام الأعياد وقبل أيام الصيام وتؤكل مع اللحم المشوى أو العسل أو مع حساء يصنع بدق اللحم وطبخه ثم يصنع منه حساء سائل يصبغ بلون أحمر، أما بالنسبة للشواء فيوجد فرنان أحدهما فوق الآخر توقد النار فى الأسفل حتى إذا سخن الفرن الأعلى أدخلت فيه الخرفان كاملة من فتحة فى أعلاه حتى ينضج ويستمر الطهى خلال الليل ويشرع فى الصباح فى بيع هذا اللحم المشوى، وحول الساحة يوجد دكاكين تباع فيها الشعيرية وأخرى تصنع فيها كرات صغيرة من اللحم المفروم تقلى فى الزيت مع كثير من التوابل وتصنع من لحم البقر(٤). وتباع الأكارع عادة مطبوخة، ويباع كذلك اللحم والسمك المقليان ونوع آخر من خبز خفيف مصنوع من أشرطة ومعجون بالسمن ويؤكل بالزبد والعسل، ومن عادة الفلاحين أن يتناولوا فى نفس الدكاكين هذه الأطعمة قبل أن ينصرفوا إلى أشغالهم فى الحقول، ويأتى بعد هؤلاء باعة الزيت والسمن المالح والعسل والجبن الطرى والزيتون

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٤ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٩ وما بعدها؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص ص١٥٠ – ١٥٤؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مرجع سابق، ص٢١٥.

(٣) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص ص٢٣٧–٢٤٠.

(٤) المصدر السابق، ص٢٣٥ وما بعدها.

والليمون (الحامض) والجزر، ودكاكينهم مليئة بأوانى الخزف المايورقى، وتباع جرار الزبد والعسل بالمزاد، والدلالون حمالون مختصون يكيلون الزيت عندما يباع بالجملة، وتسع هذه الجرار مائة وخمسين رطلاً، والخزافون ملزمون بنصعها فى حجم هذه السعة(١).

ويباع كل من الجزر واللفت فى وسط الساحة وكان يستحسنهما أهل فاس ولا يمكن شراؤهما مباشرة من الزراع باستثناء بعض الأشخاص الذين يؤدون ضريبة خاصة للجمرك(٢).وإلى الشمال من هذه الساحة يقع سوق الخضر(٣)، ثم تأتى دكاكين تصنع فيها قبعات من التبن أو سعف النخل، وسلال صغيرة متقنة الصنع، فبائعى الملح والجبص يشترونهما بالجملة ويبيعونهما بالتقسيط(٤).

وأمام هذه الساحة ساحة أخرى يباع فيها القمح والشعير والتبن والشمع بالجملة وبالتقسيط، وقريباً منها ساحة الملابس الداخلية على شكل رواق كبير ذى أربعة أبواب ويقام فيها سوق يومياً مزدحم دائماً بالنساء للبيع والشراء(٥).

وعلى مسافة بعيدة نجد بائعو الصابون السائل ودكاكينهم قليلة لأنها توجد فى كل الأحياء، ويتم صناعة الصابون فى الجبال المجاورة وينقله الجبليون والبغالون ثم يبيعونه لأصحاب هذه الدكاكين(٦).

يوجد بعد ذلك بائعو الدقيق ودكاكينهم المجتمعة قليلة لأنها متفرقة فى كل الأحياء ثم جماعة بذور الحبوب والخضر، ويوجد بهذا السوق عدد كثير من الحمالين الذين يملكون بغال وخيول بالبرادع وعليهم أن يزنوا الحبوب قبل حملها فوق بعضها البعض، وعددهم يزيد عن الثلاثمائة من الحمالين وسائقى العجلات لنقل البضائع.

يأتى بعد ذلك السوق الذى يباع فيه خيط الكتان وتحلج أليافه، وسوق الكتان هذا عبارة عن بناء كبير تحيط به أربعة أروقة فى أحدها باعة نسيج الكتان والمستخدمون الذين يزنون

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣٧.

(٢) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٥.

(٣) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٥ وما بعدها.

(٤) مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٥١.

(٥)المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٥٢ وما بعدها.

(٦) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٨؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مرجع سابق، ص٢١٥.

الخيط وفى الرواقين الآخرين النساء اللاتى يبعن هذا الخيط، ويبيع الخيط أيضاً دلالون يعرضونه فى السوق، وفى وسط ساحة السوق غرس عدد من أشجار التوت لنشر الظل(١).

ويوجد ساحةمخصصة لتجار الأقمشة الحريرية مثل الحرير الملون لتطريز القمصان والوسائد وغيرها ويشغلون نحو خمسين دكاناً، بينما يبيع بعضهم الجدائل والطرر الخاص بطقوم الخيل وغيره من أنواع الزينة ولهم نفس عدد الدكاكين، ثم نجد بعد ذلك حيان آخران يشغلهما تجار الأقمشة الصوفية أى المستوردة وكلهم أندلسيون، كما يباع بها أقمشة حريرية وقلنسوات وحرير خام، ثم يأتى مكتب محصلى الضرائب لأن هذه الأقمشة تباع بالمزاد وتحمل إلى مستخدمى الضريبة لختمها ثم ينادى الدلالون عليها أمام دكاكين التجار، ويبلغ عدد الدلالين نحو الستين(٢).ثم ساحة تباع بها ملابس مستعملة من القماش الأوربى يأتى بها أهل المدينة ليبيعوها وينادى عليها الدلالون عادة كل مساء، وبجوارها بعض الدكاكين الصغيرة التى يباع فيها الزرابى وأغطية الفرش(٣).

وتتصل هذه الساحة بقاعة الكتان والدكاكين التى يباع فيها القطن ودكاكين أخرى تباع فيها الخيام وسراديق البادية، وقريب منها توجد دكاكين لبيع الطيور داخل الأقفاص أو مذبوحة، ويوجد أيضاً بالقرب من هذا السوق دكاكين يباع فيها صوف جلود الضأن التى تطرى وتصنع منها الجلود الناعمة، وباعة الصابون والمكانس والصانعون لأغطية الفرش والشبكات التى تزين بها الخيام، وبالقرب منهم تجار يبيعون الطيور والعصافير ويطلق على هذا المكان سوق الطيريين(٤). وفى وسط هذه الساحة مكان مسور تباع فيه جميع أنواع الخضروات ودكاكين لبيع حلوى العسل والاسفنج نجد سوق آخر يباع فيه الزرابى والقمصان وأقمشة الصوف من صنع محلى(٥).

ومما يؤكد على رواج الأسواق كثرة العرض والطلب، فنجد أن الحليب وحده كان يباع منه نحو خمسة وعشرين برميلاً، وكان يباع من الجزر واللفت أكثر من خمسمائة حمل

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٨ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤١.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤١.

(٤) المصدر السابق، ص٢٤٣ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق، ص٢٣٤؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٥١.

يومياً[١]،وقد قصدنا نقل ما ذكره الوزان عن الأسواق بحاضرة فاس بشيء من التفصيل لندلل على مدى نشاط الحركة التجارية آنذاك ورواج كافة السلع رغم الاضطرابات والحروب التى كانت تشهدها البلاد، وكذلك كانت بباقى المدن والأقاليم التى انتشرت بها الأسواق للسلع والمنتجات المتنوعة، إلى جانب تجارتها مع فاس العاصمة وباقى الأقاليم بالمملكة، وبخاصة المدن التى تقع بالطريق المؤدية إلى فاس[٢]،فكان يأتيه التجار من كل أنحاء إقليم تامسنا لشراء القمح ويؤدون رسم مرور لكل حمل كتان أو قماش ينقلونه[٣]، وكانت تقام بالنخيلة كل سنة سوق يشد إليها الرحال من جميع أهل تامسنا حيث كانت تقع فى وسط إقليم تامسنا على الطريق المؤدية من الرباط إلى مراكش[٤]، كما وجدت أشجار البلوط حول مدينة المعمورة بإقليم فاس وعمل الأعراب على نقله بكميات كبيرة وبيعه فى فاس[٥].

وكانت مدينة مكناس تنتج كميات كبيرة من الكتان يباع معظمها فى فاس وسلا، كذلك الزيتون الذى يتوفر بكثرة بها ويباع القنطار منه بمثقال ونصف، وكانت تنتج البرقوق الأبيض والدمشقى وكان الحمل منه يباع بخمسة أو ستة (بيوتشات)[٦]، وتوفر بها كميات كبيرة من العناب وكانت تحمل كميات كبيرة منها إلى فاس لبيعها، ويعقد سوق أسبوعية كل يوم اثنين ويكون خارج المدينة قرب الأسوار، ويأتى إليه عدد كبير من أعراب المناطق المجاورة بأبقارهم وأغنامهم وسائر أصناف الماشية ويحملون كذلك السمن والصوف الذى يباع بأبخس الأثمان[٧].

وكانت أغلب الأسواق بالمغرب الأقصى تعقد بصفة أسبوعية، فكان فى مدينة القصر الكبير فى البادية سوقاً يوم الاثنين من كل أسبوع، يقصده الأعراب والبربر من المناطق

---

(١) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٥.

(٢) محمد بن ساعو: "التجارة والتجار فى المغرب الإسلامى" القرن ٧-١٠هـ/١٣-١٥م"، رسالة ماجستير، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر باتنة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص٢٣.

(٣) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٠.

(٤) المصدر السابق، ص١٩٩.

(٥)أبو الحسن على الجزنائى (ت: القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى): "جنى زهرة الآس فى بناء مدينة فاس"، تحقيق: عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ-١٩٩١، ص٣٥.

(٦) هى فئة من العملة الإيطالية قيمتها ٧سم ذهب، الوزان، مصدر سابق، ج١، حاشية ص٢١٤.

(٧) المصدر السابق، ص٢١٤ وما بعدها.

المجاورة بالقمح والمواشى والتمر والسمن والصوف والجلود وغيرها من البضائع(١)، وفى مدينة أكلا يقام فى البادية سوق حسن جداً على نهر ورغة ويعقد كل أسبوع ويقصده العديد من الأعراب وفلاحى هذه الناحية كما يقصده كثير من تجار فاس ليشتروا جلود البقر والصوف والشمع لأن هذه المواد وافرة فى هذا الإقليم(٢)، ووجدت بجبل بنى فنزكار والذى يبعد عن فاس حوالى سبعين ميلاً سوق كبير يقام يوم السبت يوجد فيه كل أصناف التجار وأنواع البضاعة(٣).

وفى جبل بنى منصور كان يقام كل أسبوع سوقاً يختص بالبصل والثوم والزبيب والسردين المملح(٤)، وكان سكان جبل زرويل يقيمون سوقاً مرة في الأسبوع لا يعرض فيه غير التين المجفف والزبيب والزيت(٥)، وكانت تنقل كميات كبيرة من الجوز والزبيب إلى فاس من جبل بنى بوشيبت(٦). وينتج جبل لوكاى كثيراً من العنب الذي يصنع منه الزبيب، والتين واللوز والزيتون والسفرجل والليمون، وسكان هذا الجبل أثرياء بسبب تجارتهم فى هذه المنتجات والتى يتم بيعها بمدينة فاس لقرب هذا الجبل منها(٧).

ويعقد السوق بجبل بنى أحمد مرة في الأسبوع، حيث تباع كميات عظيمة من الزيت والزبيب الأحمر، ويقصدها تجار فاس ليشتروا الدبس والتين والزيت(٨)، ويوجد فى جبل وزروال سوق يجتمع فيه أناس كثيرون من الجبال المجاورة ويباع فيه كميات كبيرة من الخمر ونسيج الكتان، وفى هذا الجبل مدينة صغيرة متحضرة جداً وتحيط بها أغراس كثيرة من الكروم وأشجار السفرجل والليمون وتحمل ثمارها إلى فاس، وفيها قضاة ومحامون(٩).

ويقام فى جبل وردان – وهو من جبال إقليم كرط – سوقاً كبيراً يوم السبت على ضفة نهر صغير، يلتقى فيه معظم فلاحي كرط، ويأتي إليه كذلك عدد كبير من تجار الحديد، وتتم

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠٣ – ٣٠٥؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٩١.

(٢) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٠٨ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق، ص٣٢٠ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق، ص٣٢٩ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق، ص٣٣١.

(٦) المصدر السابق، ص٣٣٣.

(٧) المصدر السابق، ص٣٣٥ وما بعدها.

(٨) المصدر السابق، ص٣٣٧ وما بعدها؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٥.

(٩) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٦ وما بعدها.

المبادلات التجارية بأجهزة الخيل وبالزيت في مقابل الحديد، إذ لا تنتج بلاد كرط الكثير من الزيتون(١)، كما كان التجار بجبل بنى سعيد ينقلون كميات كبيرة من الحديد إلى فاس في شكل سبائك (٢).

وكان التجار من فاس يأتون إلى منطقة هسكورة لعقد صفقات عظيمة الأرباح من تجارة الجلود والثياب الصوفية الجميلة والتى اشتهرت بها هذه المنطقة إلى جانب إنتاج الزيت بغزارة(٣)، كما ينتج جبل مرنيسة كميات كبيرة الزيتون والتين، ولذلك نشطت تجارة الزيت وكميات الفاكهة والتى تحمل للبيع بفاس وباقى الجهات المختلفة، وكذلك جيرانهم بجبل آيشتوم الذى ينتج كميات كبيرة من أشجار الزيتون، وأهله أغنياء لهم قصبة كبيرة مفتوحة ويقيم فيها عدة صناع وتجار يتجرون بفاس فيأتون منها بالكتان والصوف والقماش وغيرها من المنتجات ويشترون كميات كبيرة من الزيت(٤)، واشتهرت مغيلة بتجارة الزيت وإنتاج القمح والقنب والبابونج والكرويا والحناء والكبَّار والتى تزرع على قمة الجبل وفى سهل بالأسفل، وتحمل هذه المنتجات للتجارة بأسواق فاس(٥).التجارة الرئيسية لسكان جبل زرهون هى الزيت، والذى يحملونه لبيعه فى سوق فاس ومكناس وغيرها من المدن(٦)، ويقام بمدينة قصر فرعون سوق كل يوم أربعاء على ربوة قريبة منهه، يأتى إليه التجار من فاس ومكناس وسائر البلاد المجاورة(٧).

وسكان مدينة ترغة بإقليم الريف كلهم صيادون يملحون ما يصطادونه من سمك ويبيعونه، وتمد ترغة مدينة فاس بكميات هائلة من الأسماك، حيث أن الصيد هو المهنة الرئيسية لأغلب السكان الذين يملحون أسماكهم ويبيعونها للتجار الوافدين إليهم من الجبال المحيطة وجميع الجهات ويحمل إلى مسافة تناهز مائة وعشرين ميلاً في داخل البلاد (٨).

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤٤ وما بعدها.

(٣) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٤) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٤ وما بعدها؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٢ وما بعدها.

(٥) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٩٧؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٤.

(٦) مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٨١ وما بعدها.

(٧) المصدر السابق، ص١٨٣.

(٨) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٤ وما بعدها؛ المصدر السابق، ص٢٢٩.

وكان الفحم يباع فى أسواق فاس حيث يأتى التجار إلى سهل المرجة والذى يقع بين جبال الأطلس حيث أن جميع سكانه يعملون بالفحم ويستخرجوا منها مائة حمل من الفحم(١). كما كان السكان فى مدينة العرائش كلهم فحامون وأهم تجارتهم الفحم فكانوا يصنعونه ويرسلوه بحراً إلى أصيلا وطنجة(٢).

ويجمع سكان بنى وارثين كميات كبيرة من القمح يحملونها إلى فاس مع كميات من الأرز وكذلك يتجرون فى المواشى(٣)، كما تمتعت جزولة بتجارة الأوانى النحاسية التى تصنع بها وتصدرها إلى فاس وجميع أقاليم المملكة(٤).

ومن بين السلع المميزة بأسواق فاس الكتب والمخطوطات، حيث كان سكان جبل مسطاسة بالأطلس ينسخون عدداً كثيراً من الكتب ويبيعون مخطوطاتهم في فاس، وذلك لمعرفتهم الجيدة بالكتابة وبخطوط غاية فى الإتقان(٥).

وكعادة الأسواق على مر العصور وجد بها العديد من مظاهر الغش والتدليس ومن أمثلة ذلك بيع الخبز ناقص الوزن وخلط القمح الرديء بالطيب، وخلط العسل الجيد بالرديء والزيت القديم بالجديد، ومزج اللبن بالماء وتبييض الأكسية بالكبريت ودهن التين بالزيت، وقيام الجزارين بخلط اللحم السمين بالمهزول وغير ذلك كثير(٦).

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٤ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص٣٠٢؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٨.

(٣) مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٥.

(٤) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٥) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٨.

(٦) الونشريسى، مصدر سابق، ج٦، ص٥٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ – ٤١٦.

المبحث الثانى
التجارة الخارجية

إن الموقع الجغرافى للمغرب الأقصى جعل منه همزة الوصل بين أوروبا من جهة وبلاد السودان من جهة أخرى، ولذلك تعددت الطرق التجارية التى ربطت بين بلاد المغرب وبلاد السودان وبخاصة السودان الغربى، وأغلب الطرق التجارية من الأسواق المركزية للذهب على شواطئ نهر النيجر كانت تتجه نحو المغرب قاصدة منطقة السوس ودرعة وتافيلالت، ثم تتجه القوافل نحو أسفى ومراكش وبعدها تتجه إلى ازمور وسلا وفاس(١).

ولقدأُعطيت مراكب البندقية شهادة أمان فى عام ٩١١هـ/١٥٠٦م للقيام بعمليات تجارية ببلاد المغرب،فكانت الميناء فى مدينة بادس تأتى لها سفن البندقية مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها، فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقداً، بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس، وأحياناً إلى البندقية أو حتى الاسكندرية وبيروت (٢)، وفى مدينة غساسة التى كان لها ميناء حسن تأتيه سفن البندقية أُبرمت به صفقات تجارية مهمة مع أهل فاس تدر عليهم أرباحاً وافرة(٣).

ولقد شجعت السلطة السياسية لبنى وطاس الحركة التجارية بين الطرفين ويتضح ذلك من خلال المراسلات بينها وبين ملك فرنسا والتى أثبتت مجموعة الهدايا الفاخرة والمتنوعة للملك الوطَّاسى من قبل فرانسوا الأول، وقد أرسل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ برسالة بتاريخ ٩٤٠هـ/١٥٣٣م لملك فرنسا يمنح فيها للسفن الفرنسية بحرية الملاحة والتجارة على السواحل المغربية(٤).

---

(١) نوال على محمد عبد العزيز: "علاقات المغرب الأقصى الخارجية فى عهد بنى وطاس ٨٦٩-٩٦٢هـ/١٤٦٥-١٥٥٤"، مع تحقيق مخطوط ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين لمؤلف مجهول"، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، سنة ١٩٩١، ص١٤٣.

(٢) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦٢ وما بعدها.

(٣) Assaod, Abd Alaziz: "La Ocupacion Ibérica del Litoral Marroqui (Siglos XV-XVI) y la Resistencia", HumanIndex, 2011, p18.

(٤) عبد الهادى التازى: "التاريخ الدبلوماسى للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم"، المجلد السابع، عهد بنى مرين والوطاسيين، ١٤٠٨-١٩٨٨، ص٢٩٣ وما بعدها.

وكان فى ميناء سلا عدد كبير من التجار الجنويين والبندقيين والإنجليز والفلامنكيين (سكان هولندا)، وكان أكثرهم نشاطاً الجنويون الذين كانوا يروجون تجارة واسعة بكل من فاس وسلا(١)، كما تميز سكان مدينة انفا بعلاقاتهم التجارية الوثيقة مع التجار البرتغاليين والإنجليز(٢).

كما كانت مدينة سبتة من هذه المدن التى وجدت بها تجارة واسعة بين أقاليم السودان وأوروبا، فكان يأتى إليها التجار من كل جهة بسبب جودة مصنوعاتهم من الذهب والفضة والنحاس حيث كان بها عمال مهرة اتسمت صناعتهم بالإتقان والدقة إلى جانب وجود جميع أنواع المنسوجات والصوف والكتان، فكانت من أجود المنسوجات آنذاك، ومن المدن التى استمرت بها حركة التجارة مدينة سوسة ودرعة وتنوعت بهما المنتجات المغربية والتى انتشرت فى أوروبامثل المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجفان والمحابر وغيرها(٣)، كما كان من أهم ما يصدره المغرب هو السكر، وكذلك البرانس التى كانت تصنع بتفزة من ناحية تادلا(٤).

ومن المنتجات التى كانت منتشرة بالمغرب ويحتاجها الغرب الشمع وجلود البقر والتى كانت توجد بكثرة فى جبل بنى فنزكار الذى يبعد عن فاس حوالى سبعين ميلاً، وكان يقصده الناس حتى الجنوبيون لشراء الشمع وجلود البقر وإرسالها إلى جنوة والبرتغال(٥)، وكذلك التجارة فى المواشى وبخاصة فى الإبل والخيل رائجة مع أوروبا التى كانت تستورد منها الكثير(٦). أما البضائع المستوردة من أوروبا فمن ضمنها الملف الذى كان يباع بكثرة فى المغرب، وكذلك كان يُجلب منها بعض أنواع الثياب الحريرية فضلاً عن المدافع والبنادق وصفائح السيوف والرصاص والقنابل(٧).

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٧ وما بعدها؛ عبد الهادى التازى، المرجع السابق، ص٣٠٣؛ إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٢) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص١٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص٣١٦ وما بعدها؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٦ وما بعدها.

(٤) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٥) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٠ وما بعدها؛ مارمول كربخال، مصدر سابق، ج٢، ص١٤١.

(٦) ابراهيم حركات، مرجع سابق، ص٢٠٣.

(٧) المرجع السابق، ص٢١٦.

كما كانت مدينة تفتة – وهى ثغر على المحيط الأطلنطى – مرسى للسفن الصغيرة، واعتاد بعض التجار البرتغاليين على مقايضة سلعهم بالشمع وجلود الماعز التى تكثر فى هذه المدينة فلكل واحد من سكانها عدد كبير من الماعز ترعى نهاراً تؤوى ليلاً داخل المنازل، وبها نهر صغير تدخل إليه السفن بسهولة، ويوجد بهذه المدينة جمرك وضريبة الملح وتقسم جميع المداخيل بين الرجال القادرين على الدفاع عن المدينة(١)، كما اعتاد سكان المناطق المجاورة لأصيلا وطنجة المتاجرة مع البرتغاليين(٢).

أما عن التجارة مع بلاد السودان فكانت رائجة ومزدهرة، حيث أن الصحراء الكبرى لم تكن حائلاً بين المغرب وبقية البلدان السودانية، فكانت الصحراء أداة ربط بينهما فأدت هذه الصحراء دوراً حضارياً واقتصادياً مهماً، فمن خلال الصحراء عبرت مواكب العلماء وطلاب العلم ورواد الثقافة والحضارة، كذلك كانت التجارة من أهم وسائل الاتصال وتبادل السلع والمؤثرات الحضارية معاً. وكان من مظاهر التجارة الخارجية ما كان يحمله السود من السنغال من تجارة انتشرت بالمغرب وخاصة مدينة تارودانت والتى كانت مزدهرة بتجارة الجلد والتبر وريش النعام والأسلحة والصمغ(٣).

وكانت التجارة تتم عن طريق القوافل على هذا الطريق بين السودان الغربى وبلاد المغرب الأقصى، فقامت به عدة مراكز تجارية كأساس ثم غلب عليها الطابع الثقافى، فعلى الجانب المغربى من هذه الطريق قامت عدة مراكز مهمة مثل سجلماسة وورقلة وغدامس وتوات وزويلة، أما مراكز الجانب السودانى فأهمها تنبكت وجاو، ولإدراك أمراء مملكة صنغى للأهمية الكبيرة لتوطيد العلاقات الاقتصادية والثقافية مع بلاد المغرب فكانوا يرحبون بسفراء الجانب المغربى ويرحبون بهم ويدعونهم لقصورهم كما حدث مع الحسن الوزان الذى زارها مرتين(٤).

---

(١) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص١٠٨ وما بعدها.

(٢)أوغست كور: "دولة بنى وطّاس (١٤٢٠-١٥٥٤)"، ترجمة: محمد فتحة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، اكدال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٣١-٢٠١٠، ص٥٣.

(٣) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مرجع سابق، ص٢١٧.

(٤) نوال عبد العزيز، مرجع سابق، ص١٤٦

وتنوعت البضائع بين الطرفين فكان من صادرات المغرب إلى الأسواق الأفريقية الأوانى النحاسية والمصنوعات الحديدية كأدوات الفلاحة ولوازم الخيل وغيرها، والمصنوعات الزجاجية كالأكواب وعقود الزينة للنساء، كما كان الودع له أهمية خاصة فى صادرات المغرب والذى كان يستخدم فى الزينة، كما صدر قسم كبير من العطور مثل المسك والعنبر والمصنوعات القطنية والخيول، هذا إلى جانب المنتجات الأوربية من الأقمشة القطنية والنحاس والأسلحة(١)، كما عرفت الكتب المغربية طريقها إلى بلاد ما وراء الصحراء ونشأت بسبب ذلك حرفة الوراقة بتلك البلاد(٢).

أما أهم ما حملته القوافل المغربية العائدة من بلاد السودان فكان الذهب كمادة أساسية فى تلك المعاملات والذى كان يصدر منه جزءاً إلى جنوب أوروبا، كما جلب الرقيق من بلاد السودان الغربى إلى أسواق المغرب، ومن السلع السودانية أيضاً ريش النعام والتوابل(٣). وهكذا تعددت وتنوعت السلع والبضائع المتبادلة بين المغرب الوطَّاسى وبلاد السودان الغربى فى تلك الفترة(٤).

كما استمرت المبادلات التجارية بين بعض مدن المغربين الأوسط والأقصى كتلمسان ودرعة وغيرها(٥)، وكان يسمح بالتجارة للمراكب القادمة من المغرب الأوسط نظير وجود موافقة أعطيت لمراكب أتراك المغرب الأوسط للدخول إلى ميناء مدينة تطوان والتزود منه فى سنة ٩٤٩ه/١٥٤٢ من قبل الست الحرة حاكمة تطوان(٦).

---

(١) نعيم زكى فهمى: "طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص٢٣٨.

(٢) الونشريسى، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٦.

(٣) الطاهر قدورى: "الأوربيون ببلاد المغرب فى العصر الوسيط وفرص التعايش"، عصور الجديدة، المجلد٧، العدد٢٦، ١٤٣٨ه/٢٠١٦م، ص٥٣.

(٤) نوال على محمد عبد العزيز، مرجع سابق، ص١٤٩.

(٥) عمار بن خروف: "العلاقات بين الجزائر والمغرب ٩٢٣-١٠٦٩ه/١٥١٧-١٦٥٩م"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، سنة ١٤٠٣ه/١٩٨٣م، ص٣٠٧.

(٦) عبد الهادى التازى، مرجع سابق، ص٣١٠.

وكانت الفنادق فى الحواضر المغربية هى المكان الذى يبيت بـه التجـار والـزراع الغرباء واستخدمتلتخزين السلع أيضاً[١]، وكانت العملية التجارية تتطلـب وجـود متـرجمين يتقنون بعض الألسن (لغات) ويتولون بذلك تسهيل عملية التواصل بين التجار ويقوم بتعيينهم المشرف على الديوانة المغربية، وكان أغلب المترجمين من اليهود، لما عرف عنهم من كثرة تنقلاتهم واتقانهم للغات متعددة أهلتهم لممارسة هذه الوظيفة[٢].

وقد تأثرت التجارة فى العهد الوطَّاسى بالهجمات الأوروبية المتكررة علـى بعـض سواحلها، كذلك فإن انعدام الأمن فى الكثير من الأحيان أدى إلى انتشار ظـاهرة اللصوصـية وقطع الطريق فى العديد من الطرق التجارية التى كانت غير مأمونة للتجار، ويتحدث الوزان (ت: ٩٢٦هـ/١٥٢٠م)فى ذلك عن جبل دادس قائلاً: "والتجار لا يقصدون هذا البلد لأن أهلـه يعيشون فى بطالة ولا يمارسون أية صناعة وينهبون المسافرين"[٣]، فكان ذلك له الأثر السيء على انحسار النشاط التجارى فى بعض المدن.

وقد أسهم الغزو البرتغالى فى تعاظم الأزمة السياسية والاقتصادية فى المغرب، حيث عمل البرتغاليون على الحصول على الحبوب المغربية بشتى الوسائل كالشراء أو استخلاصها على شكل ضرائب أو عن طريق النهب، وبسبب الإلحاح الشديد على الإنتاج المغربى من الحبوب والذى لا يراعى إمكانات المغرب وظروفه، عجز المغرب عن مواجهة المجاعة التى تعرض لها بسبب فقدان الفائض الذى كان يدخر لتلافى آثار المواسم السيئة، ولذلك كانت مجاعة عام ٩٢٩هـ/١٥٢١م[٤]،وكذلك المجاعة التى حدثت فى عام ٩٤٩هـ/١٥٤١م وهما من أشد المجاعات التى عرفها المغرب خاصة فى دكالة والسوس حيث فقدت القبائل فى هذه المناطق الكثير من سكانها وماشيتها وطاقتها الإنتاجية، وأرغم المغربى خلالها على بيع أبنائه

---

(١) عبد القادر زبادية: "مملكة سنغاى فى عهد الأسيقين"، الشركة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع، الجزائـر، ص٢١١-٢١٣.

(٢) ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة (ت: ٢٨٠هـ/٩١٢م): "المسالك والمالـك"، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٨٨٩، ص١٥٣ وما بعدها.

(٣) الوزان، مصدر سابق، ج١، ص١٨٩.

(٤) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، تحقيـق جعفـر الناصرى، ومحمد الناصرى، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج٤، ص١٤٩.

قبل بيع نفسه[١]، خاصة بعد أن شدَّد السعديون قبضتهم شيئاً فشيئاً على البرتغاليين والمتعاملين معهم عمدوا الى البحث عن الحبوب فى الشمال الوطَّاسى الذين تساهلوا فى بيع القمح للبرتغاليين سداً لحاجاتهم المالية، فكان القمح من أهم الصادرات إلى الايبيريين وكذلك الجلود والشمع والصوف والتبر فى مقابل الفواكه المجففة والأنسجة القطنية والزجاج والأسلحة[٢].

ومن العوامل التى أثرت سلباً على النشاط التجارى حركة الكشوفات الجغرافية التى قام بها البرتغال فى أوائل القرن ١٠ه/١٦م، حيث أنهم استطاعوا الدوران حول طريق رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٤ه/١٤٩٨م، بقيادة فاسكو دى جاما (٨٧٤-٩٣١ه/ ١٤٦٩-١٥٢٤م)، وهو ما شكل ضربة قوية لطرق التجارة التقليدية على مستوى العالم آنذاك[٣].

(١) محمد رزوق: "قضية الرق فى تاريخ المغرب"، مجلة البحوث التاريخية، المجلد٨، العدد٢، يوليو ١٩٨٦، ص٢٧٧ وما بعدها.

(٢) أحمد بوشرب: "دكالة والاستعمار البرتغالى إلى سنة إخلاء آسفى وأزمور" دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ص ١١٢ ، ٤٤٨ وما بعدها.

(٣) عزيز سوريال عطية: "الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب"، ترجمة: فيليب صابر سيف، مراجعة: أحمد خاكى، دار الثقافة، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ط٢، ص١٩٣.

الخاتمة:

إن الهدف من هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على التجارة الداخلية والخارجية بمجتمع المغرب الأقصى فى العهد الوطَّاسى، حيث أن فترة الحكم الوطَّاسى ببلاد المغرب الأقصى قد تخطاها الكثير من الدارسين فى دراساتهم ووسموها بالغموض، وبنوا هذه النظرية انطلاقاً مما كان يعيشه المغرب آنذاك من حروب وفتن وأزمات اقتصادية وسياسية.

أوضحت الدراسة أنه رغم تعرض المغرب الأقصى للعديد من الحروب والاضطرابات فى عهد بنى وطَّاس، إلا أن النشاط الاقتصادى قد استمر وتطور فى أغلب المناطق بالمغرب الأقصى، نظراً لتوفر العديد من المصادر والثروات الزراعية والمعدنية ببلاد المغرب والتى أتاحت استمرار النشاط الاقتصادى وازدهاره فى عدة مدن لاسيما المدن الكبيرة والتجارية منها وظهر ذلك جلياً فى المجال الزراعى والصناعى،كما استمرت التجارة بين مدينة فاس العاصمة وباقى الأقاليم بالمملكة إلى جانب التجارة الخارجية مما أسهم فى استمرار النشاط الاقتصادى وتطوره.

وقد تناول الباحث النظم التجارية والتى أخذت عدة أشكال منها البيع بالمعاوضة ونظام المزايدة وكذلك الدلالة والسمسرة ونظام القراض، مع توضيح لكل نظام وتعاملاته التجارية، كما تبين وجود الشركات التجارية بين شخصين أو أكثر بعقد مبرم بينهم على أن يقسم الربح على أساس مدى المساهمة فى الشركة، كذلك نظام الوكيل التجارى والذى يتولى حق القبض وطلب الحقوق نيابة عن موكله، كذلك عُرف بالمغرب نظام الرهن وكذلك نظام المعاوضة وهو ما يعادل نظام المقايضة، كما وجد أيضاً نظام العارية والسلف والكراء، وكل هذه الأنظمة تتم بناءً على عقد مبرم بين الأطراف.

ومما يدلل على مدى نشاط الحركة التجارية آنذاك ورواج كافة السلع رغم الاضطرابات والحروب التى كانت تشهدها البلاد، انتشار الأسواق والحوانيت لمختلف السلع والصناعات المنتشرة فى ذلك الوقت، وبين الباحث كيفاختصت كل سوق بصناعة أو نوع معين من هذه السلع، وأنها غالباً ما تكون حول المساجد على حسب ما توفره لها من احتياجات المسجد، ولارتباط المسجد بالأسواق سميت أبواب المساجد بأسمائها، مثل مسجد القرويين فى فاس فبه باب الكتبيين وباب الشماعين وباب الموثقين، ثم تتعاقب الأسواق طبقة فطبقة فهناك أسواق للرقيق، وأخرى للزيت والبز والغزل والعطارة والخضر واللحم وغيرها من السلع، إلى أن يكون آخرها إلى جانب سور المدينة والتى يجب أن تكون بعيدة عن

المنازل والسكان حتى لا تؤذيهم برائحتها أو أدخنتها مثل الدباغين والصباغين والحدادين وغيرها من الحرف. كما بين الباحث وجودأسواق أسبوعية تعقد بالقرى البعيدة عن المدن وهى أسواق خاصة يباع بها اللحم والسمن والخضر والفاكهة، أما سكان القرى القريبة فكانوا يقومون بتسويق سلعهم فى الحواضر، حيث ينزلون بفنادق المدينة لبيعها بسعر أعلى وفى وقت وجيز حتى يتمكنوا من العودة إلى قراهم.

وبينت الدراسة أن الموقع الجغرافى للمغرب الأقصى جعل منه همزة الوصل بين أوروبا من جهة والسودان الغربى من جهة أخرى، ولذلك تعددت الطرق التجارية التى ربطت بين الطرفين، وذلك فى ظل تشجيع السلطة السياسية لبنى وطاس،واتضح ذلك من خلال المراسلات بينها وبين ملك فرنسا، وبينت الدراسة وجود علاقات تجارية وثيقة بين أهل المغرب آنذاك والتجار البرتغاليين والإنجليز من جهة وبلاد ما وراء الصحراء من جهة أخرى، وأوضحت المنتجات والبضائع المتبادلة بين جميع الأطراف.

كما بينت الدراسة إلى وجود عدة أسباب أثرت سلباً على التجارة فى العهد الوطَّاسى، ومنها الهجمات الأوربية المتكررة على بعض سواحلها وانعدام الأمن فى الكثير من الأحيان، وانتشار ظاهرة اللصوصية وقطع الطريق، كذلك ظهور حركة الكشوفات الجغرافية التى قام بها البرتغال فى أوائل القرن ١٠هـ/١٦م، والتىشكلت ضربة قوية لطرق التجارة التقليدية على مستوى العالم آنذاك.